شقشقة

كعادته في صباح أيام عمله، يتكئ على مقعد سيارته وينتظر تسخين محركها للذهاب إلى مقر وظيفته بوسط المدينة... سرعان ما يشعل سيجارته الأولى متأففًا...

- لقد غدا هذا الشارع مزدحمًا ومقرفًا! حتى الحافلات الكبيرة بدلا من أن تركن في المواقف المخصصة لها يوقفها سائقوها في الشوارع العامة وتمر عليها دوريات المرور دون اكتراث!

يدخن سيجارته ويمضي ببرود نحو روتينه اليومي ... تتصل به زوجته على غير عادتها، إلا أنه يتجاهلها قائلا:

- ماذا تريدين أن أفعل لكِ؟ الزحام شديد وأي خطأ سيوقعني في حادث شنيع، لِمَ لَمْ تنهي كل طلباتك قبل مغادرتي!... يا للنساء المتعبات!

رنين هاتفه لا يتوقف... يمسكه بيده إلا أن سيارة مسرعة تتجاوزه عن يمينه ...

- من الذي أعطاك رخصة قيادة يـا هـذا؟ ألا تعلـم أن التجـاوز ممنوع من اليمين! تبًّا لك ولهذا الهاتف اللعين! ولشرطة المرور أيضا!

يدخل هاتفه في جيبه ...يقف متململا في انتظار فتح الإشارة التي تنظم السير في التقاطع الكبير...

أكثر من عشر سنوات منذ أعلن الرئيس الملهم مشروع القطارات الأرضية إلا أن الأموال التي رصدها للمشروع ذهبـت دون شـك إلى جيبه النهم وأرصدة عائلته وحاشيته التي لا تمتلئ أبدًا!

بعد انتظار طويل يتمكن من استئناف خط سيره... يشاهد صورة كبيرة للرئيس...

- لا أعلـم لِمَ أنـت رئيسـنا؟ بـأي حـق تحكمنـا وتقـرر مصـيرنا وتتدخل في حياتنا؟ عشرون عامًا وأنت متربع على هذا الكـرسي! أمـا مللت يا رجل؟ كيف نجوت من أربع محاولات انقلاب! يـا لـك مـن محظوظ!

يمر على صورة أخرى...

- لا نحبك لا نحبك ارحل عنا أنت وحزبك!

يمر على مقر مجلس النواب...

- نـواب أم شـيوخ منصرـ! تشـترون أصـوات النـاس وعنـدما تجلسون عـلى كراسـيكم لا تفعلـون شـيئًا سـوى التصـفيق لقـرارات رئيسكم المزهو بذاته! مجلس نواب هذا أم مجلس للتصفيق!

يواجهه زحام آخر ...

- يبدو أني لن أصل لعملي في الوقت المحدد ببركة هذا الازدحـام المدمر!

ينـادي عـلى بـائع الصـحف المتجـول ليشـتري منـه الصـحيفة اليومية... يتصفحها بسرعة وهو يضحك!

- صـور سـيادته عـلى الصـفحة الأولى كالعـادة! كيـف لا وهـو الإنسان الأول في هذه البلاد ورأس الدولة بل هو الدولة!

- تشغل أكثر من عشرين منصبًا! كيف تستطيع إدارتها كلها!

- متـى سـترحل عنـا؟ وإذا مـا رحلـت إلى الأبـد فـإن تماثيلـك وصـورك التـي تمـلأ مـدن الـبلاد سـتحتاج إلى آلاف الأشـخاص لإتلافها... أتوقع أن عددها سيفوق عدد الشعب في يوم قريب!

يلمح دائرة الدعم الاجتماعي ويشاهد مئات الناس ينتظرون فتح البوابات للدخول والحصول على الإعانة الشهرية...

يا للهول! الثروة الهائلة تتماوج من تحت أقدامكم! وتقبلون بفتات تمن به حكومة الرئيس المظفر! أيها المساكين لديكم ثروة لا تغطيها أشعة الشمس! ولكن رئيسكم وحزبه لم يبقوا لكم شيئا! حتى لو سقط نظامه هل ستعود لنا ثرواتنا التي استنزفها؟ بل هل سنتمكن من بناء أنفسنا بعد كل هذا التدمير الفظيع الذي لحق بها؟ ماذا جنيت بنا أنت وحزبك يا هذا!

يصل إلى مقر عمله بعد ساعة مثقلة بالهموم... يجد موقفًا بصعوبة كعادته...

ما إن يقفل باب سيارته حتى يحيط به مجموعة من الأشخاص

- أنت موقوف بأوامر أمنية عليا.

- من أنتم؟

- ألا تعلم من نحن يا هذا!

تنتابه صدمة رهيبة ...

- يا هذا! إنها كلمة قلتها قبل لحظات! ولكن مستحيل! لم أقلها لأحد ولم يسمعني أحد! ما الذي يحدث؟

يقاد إلى مقر سري للأمن...

يرمى لعدة ساعات في زنزانة انفرادية ... يأتيه أحد الضباط...

- ما بالك ساكتًا؟ لِمَ لا تتحدث مع نفسك كما كنت تفعل على الدوام؟

- (ينظر إليه في ذهول) ماذا تريدون مني؟ ما الذي جنيته حتى تقبضون علي؟

يأخذه إلى غرفة التحقيق...

يجلس أمام المحقق الذي كان يوقع بعض الأوراق... يلمح هاتفه الجوال وجهاز تسجيل... ينظر إليه المحقق بابتسامة غير معهودة ثم ما يلبث أن يضحك بسعادة غامرة...

- يا لك من شخص ظريف، ولكن سيئ الحظ!

- سيدي ما الذي فعلته؟ أنا لم أرتكب جرمًا بحق أحد، أنا مواطن صالح طوال عمري.

المحقق يستمر في ضحكه ليضحك معه بقية الضباط والجنود...

يمسك المحقق بمشغل الوسائط الصوتية ويضغط على زر التشغيل ليُسمِعه صوتَه الذي انتقد به الرئيس والحزب والحكومة أثناء ذهابه لعمله!

- مستحيل... مستحيل، كيف ذلك!

- يا لك من صيد سهل! حظك العاثر أوقعك في يدي أنا شخصيًّا.

يتصبب العرق من جبينه...

- لا تخف لن نؤذيك وستمضي من بين أيدينا سالمًا، لا تقلق أبدًا!

يستعيد تماسكه وثباته...

- ما تفعلونه غير قانوني، لا يجوز التجسس على أحد إلا أن يكون مشتبهًا به.

- بالطبع كلامك صحيح ونحن نفذنا هذا القانون بحذافيره!

- كيف؟

- نحن لم نتجسس عليك قط، أنت بكل بساطة اتصلت بالشرطة خطأ بواسطة هاتفك المتحرك ولم تنهِ المكالمة!

- يا إلهي!

- يبدو أنك لم تغلق هاتفك بالطريقة الصحيحة! وقد بادر مسؤول الاتصال إلى تسجيل كلامك وإرساله لنا!

- أنا لم أقل هذا الكلام لأحد، إنه بيني وبين نفسي!

- مهمتنا رصد كل شيء! حتى أحلامك لو كان الأمر لنا لراقبناها!

- تريدون معاقبتي على كلام وجهته لنفسي!

- قل هذا للمحكمة يا أخي المواطن!

يتيقن بأنه وقع في ورطة كبرى، يقضي ليالي حالكة في سجن الأمن المركزي، وبعد طول انتظار تعرض قضيته على المحكمة...

- هل هذا التسجيل لك؟

- نعم سيدي.

- إذن أنت تعترف؟

- ولكني وجهته لنفسي ولم أقله لأحد، إنه رأيي احتفظت به ولم أعلنه فكيف أعاقب عليه؟

- (المدعي العام) سيادة القاضي: إن هذا الرجل كشف بما قاله عن ميل غير طبيعي للاحتجاج الهمجي والتمرد غير المشروع على أنظمة البلاد وقوانينها، وكشف بما اعترف به من آراء أنه يحمل في داخله نزعات انتقامية شريرة وميولا عدوانية قد تتحول يومًا ما إلى فعل مدمر، وإن من واجبنا تجاه مواطنينا وبلدنا أن ننزل به العقاب الرادع الذي هو بمثابة علاج له ولأمثاله.

- لا يا سيدي، إنها مجرد شقشقة جاءت على لساني في لحظات غضب عارمة ليس إلا، ولو كنت كما قال الادعاء لتحولت إلى فعل واضح وصريح في أوج شبابي وليس الآن بعد أن دخلت خريف العمر.

- سيدي القاضي، لو كان كلامه عابرًا لهان الأمر، إلا أنه كان مشوبًا بكراهية وأحقاد دفينة تجاه قيادة البلاد ومؤسسات الدولة.

- صدقني يا سيادة القاضي إنها مجرد شقشقة.

ينظر له القاضي بوجه متصلب ثم ينطق بالحكم...

- حكمت المحكمة بسجنك خمس سنوات.

يقيده رجال الشرطة ويمضون به إلى حياته الجديدة ...

- تحكمون عليَّ لكلام عابر قلته لنفسي! تدينوني لرأي خرج من فمي ليسبح في الأثير اللامتناهي! تعاقبونني على فكرة حبيسة داخل عقلي!

لا أحد يسمعه.... يلقى في سجنه الكئيب ليقضي نصف عقد من عمره عقوبة له على شقشقة تحدث بها مع نفسه في ساعة غضب عاتية.